تفسير سورة الحاقة

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾ ربع

الحاقةُ من أسماء يوم القيامة ؛ لأن فيها يَتحقَّقُ الوَعدُ والوَعيد ؛ ولهذا عَظَّم تعالى أمرَها فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ ؟

ثم ذكر تعالى إهلاكه الامم المكذبين بها فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ ، وهى الصيحة التى أسكتتهم ، والزلزلة التى أسكنتهم . هكذا قال قتادة : الطاغية: الصيحة . وهو اختيار ابن جرير . وقال مجاهد : الطاغية: الذنوب . وكذا قال الربيع بن أنس ، وابن زيد : إنها الطغيان، وقرأ ابن زيد : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ [الشمس:١١] . وقال السُّدِّى : ﴿ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قال : يعنى : عاقر الناقة. ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أى: باردة. قال قتادة، والربيع، والسدى، والثورى: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أى: شديدة الهبوب. قال قتادة: عتت عليهم حتى نَقَّبت عن أفئدتهم. وقال الضحاك :﴿ صَرْصَرٍ ﴾: باردة ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾: عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة . وقال على وغيره : عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى: سلطها عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أى: كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ حُسُومًا ﴾ : متتابعات . وعن عكرمة والربيع : مشائيم عليهم ، كقوله : ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت:١٦] قال الربيع: وكان أولها الجمعة . وقال غيره: الأربعاء . ويقال : إنها التى تسميها الناس الأعجاز ؛ كأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ . وقيل : لأنها تكون فى عجز الشتاء . قال ابن عباس : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ : خربة . وقال غيره : بالية ، أى : جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان . وقد ثبت فى الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصرتُ بالصَّبا ، وأهلكَت عادٌ بالدَّبور »[(١)] . ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ ؟ أى : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خَلَفا .

(١) البخارى (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠/١٧) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ ﴾ : قُرئ بكسر القاف ، أى : ومن عنده فى زمانه من أتباعه من كفار القبط . وقرأ آخرون بفتحها ، أى : ومن قبله من الأمم المشبهين له . وقوله : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴾ وهم المكذبون بالرسل ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى: بالفعلة الخاطئة ، وهى التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع : ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى : بالمعصية . وقال مجاهد : بالخطايا. ولهذا قال : ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا جنس ، أى : كُلّ كذّبَ رسول الله إليهم. كما قال : ﴿كُلٌّ [(١)] كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق:١٤]. ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع، كما قال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٠٥] ، ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٢٣] ، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٤١] . وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أى : عظيمة شديدة أليمة. قال مجاهد : ﴿ رَّابِيَةً ﴾ : شديدة . وقال السدى : مهلكة .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ أى : زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود . قال ابن عباس وغيره : ﴿ طَغَا الْمَاءُ ﴾ : كثر ، وذلك بسبب دعوة نوح ، عليه السلام ، على قومه حين كذبوه وخالفوه ، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعَمّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح فى السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته .

ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ وهى السفينة الجارية على وجه الماء ، ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ أى : وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء فى البحار ، كما قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف:١٢، ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس:٤١، ٤٢] . وقال قتادة : أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة . والأول أظهر ؛ ولهذا قال : ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ أى : وتفهم هذه النعمة ، وتذكرها أذن واعية . قال ابن عباس : حافظة سامعة . وقال قتادة : ﴿ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ : عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله ، وقال الضحاك : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ : سمعتها أذن ووعت . أى : من له سمع صحيح وعقل رجيح . وهذا عام فيمن فهم ووعى .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور ، وهى هذه النفخة . وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة ؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ،ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد. وقال الربيع : هى النفخة الأخيرة . والظاهر ما قلناه ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى: فمدت مَدّ الأديم العكاظى، وتبدّلت الأرض غير الأرض،

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « إن كل إلا » وهو خطأ .

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أى : قامت القيامة. ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ وقال ابن جريج : هى كقوله : ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ:١٩] . وقال ابن عباس : منخرقة ، والعرش بحذائها .

﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ : الملك: اسم جنس، أى : الملائكة على أرجاء السماء. قال ابن عباس : على حافتها . وكذا قال سعيد بن جبير ، والأوزاعى . وقال الضحاك : أطرافها . وقال الحسن البصرى: أبوابها . وقال الربيع بن أنس فى قوله : ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ يقول : على ما استدق من السماء ، ينظرون إلى أهل الأرض .

وقوله : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أى : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم ، أو : العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب .وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : « أذنَ لى أن أحدثكم عن ملك من حَمَلة العرش : بُعْدُ ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » . وهذا إسناد جيد ، رجاله ثقات . وقد رواه أبو داود [1] . وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أى : تعرضون على عالم السر والنجوى الذى لا يخفى عليه شىء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ؛ ولهذا قال : ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ .

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝﴾

يخبر تعالى عن سعادة من أوتى كتابه يوم القيامة بيمينه ، وفرحه بذلك ، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أى : خذوا اقرؤوا كتابيه ؛ لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ؛ لأنه ممن بَدل الله سيئاته حسنات . وقوله : ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أى: قد كنت موقنا فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦] . قال الله : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أى : مرضية ، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها . وقد ثبت فى الصحيح : « إن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » [2] .

وقوله : ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ قال البراء بن عازب : أى قريبة ، يتناولها أحدهم ، وهو نائم على سريره . وكذا قال غير واحد . وقوله : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أى : يقال لهم ذلك ؛ تفضلا عليهم، وامتنانا وإنعاما وإحسانا .وإلا فقد ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «اعملوا وَسَدِّدوا وقَارِبُوا واعلموا أن أحدا منكم لن يدخلَه عملُه الجنةَ » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدنى الله برحمة منه وفضل » [3] .

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَا لَيْتَهَا

(١) أبو داود (٤٧٢٧) ، وصححه الألبانى .
(٢) البخارى (٢٧٩٠) .
(٣) البخارى (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦ / ٧١) .

كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه فى العَرَصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم : ﴿ فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية ﴾ . قال الضحاك: يعنى موتة لا حياة بعدها . وكذا قال محمد بن كعب ،والربيع ،والسدى . وقال قتادة : تمنى الموت ، ولم يكن شيء فى الدنيا أكره إليه منه . ﴿ ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه ﴾ أى : لم يدفع عنى مالى ولا جاهى عذابَ الله وبأسه، بل خَلَصِ الأمر إلىَّ وحدى ، فلا معين لى ولا مجير. فعندها يقول الله ،عز وجل : ﴿ خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه ﴾ أى:يأمر الزبانية أن تأخذه عَنفاً من المحشر، فتَغُله ، أى: تضع الأغلال فى عنقه ، ثم تُورده إلى جهنم فتصليه إياها ، أى : تغمره فيها .

وقوله : ﴿ ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾ عن ابن عباس وابن جرير : بذراع الملك . وقال ابن عباس : ﴿ فاسلكوه ﴾ تدخل فى استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود حين يشوى . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن رَصَاصة مثل هذه ــ وأشار إلى مثل جُمْجُمة ــ أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهى مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة ، لسارت أربعين خريفاً الليلَ والنهارَ ، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها ». وأخرجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن [١] .

وقوله : ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أى : لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ويؤدى حقهم ؛ فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا ، وللعباد بعضهم على بعض حقّ الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ؛ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقبض النبى ﷺ وهو يقول : « الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » [٢] . وقوله : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أى : ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله،لا حميم ــ وهو القريب ــ ولا شفيع يطاع ،ولا طعام له هاهنا إلا من غسلين . قال قتادة : هو شر طعام أهل النار . وقال الربيع ، والضحاك : هو شجرة فى جهنم . وقال ابن عباس : ما أدرى ما الغسلين، ولكنى أظنه الزقوم . وقال: الغسلين : الدم والماء يسيل من لحومهم . وقال على بن أبى طلحة عنه : الغسلين: صديد أهل النار .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول تعالى مُقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته فى مخلوقاته الدالة على كماله فى أسمائه وصفاته،

---

(١) المسند (٦٨٥٦) والترمذى (٢٥٨٨) وعنده : « إسناده حسن صحيح » . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) المسند (٥٨٥) وأبو داود (٥١٥٤) . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامُه ووحيه وتنزيلُه على عبده ورسوله، الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، فقال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى: محمداً ﷺ ، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسِل؛ ولهذا أضافه فى سورة التكوير إلى الرسول الملكى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ وهذا جبريل ،عليه السلام .

ثم قال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ يعنى: محمداً ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى : أن محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها ، ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أى : بمتهم ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير:١٩ـ ٢٥] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، فأضافه تارة إلى قول الرسول الملكى ، وتارة إلى الرسول البشرى ؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه ؛ ولهذا قال: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أى : محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريا علينا ، فزاد فى الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا ، وليس كذلك ، لعاجلناه بالعقوبة . ولهذا قال: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ قيل : معناه: لانتقمنا منه باليمين ؛ لأنها أشد فى البطش . وقيل : لأخذنا منه بيمينه . ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ قال ابن عباس : وهو نياط القلب ، وهو العِرْقُ الذى القلب معلق فيه . وكذا قال عكرمة ،وسعيد بن جبير. وقوله : ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ أى : فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك . والمعنى فى هذا : بل هو صادق بار راشد ؛ لأن الله ، عز وجل ، مقرر له ما يبلغه عنه ، مؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى : القرآن كما قال :﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت:٤٤] . ثم قال: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أى : مع هذا البيان والوضوح ، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن . ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ قال ابن جرير : وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة وحكاه عن قتادة بمثله .وعن أبى مالك: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يقول: لندامة . ويحتمل عود الضمير على القرآن ، أى : وإن القرآن والإيمان به لحسرة فى نفس الأمر على الكافرين ، كما قال : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الشعراء:٢٠٠، ٢٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ:٥٤] ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى : الخبر الصدق الحق الذى لا مرية فيه ، ولا شك ولا ريب . ثم قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى أنزل هذا القرآن العظيم .